الصحافة العثمانية

الصحافة او في الجرائد والمجلات هي عنوان ارتقاء الامة المحسوس وكل امة كانت صحافتها اوسع وامتع بسوغ لك ان تحكم عليها بانها ارقع وامنع . فالجرائد الانكليزية مثلاً اوسع مادة وابعد نظراً واصدق اقوالاً من الافرنسية والايطالية لان الانكليز رجال الاقتجار والاستثمار على كبار من الفرنسيس والطليان ودولتهم ارقى الدول . وهكذا الحال في صحافة الامة العثمانية المختلفة العناصر والاجناس وتاريخها يرد الى سنة ١٢٧٦ هـ . ولعلنا لا نخطئ اذا قلنا ان الصحافة التركية ارقى من الصحافة العربية والرومية والارمنية والبلغارية وبعبارة اخرى ان الصحف التركية ارقى من العربية اذ لا يجوز لنا ان نحكم على الصحافة الرومية والارمنية والبلغارية ونحن لا نعرف لغاتها لقراءتها والحكم على الشيء فرع عن تصوره . اما التركية فلمعرفتنا بها يتيسر لنا الحكم على جرائدها وجرائدنا معاً كما نحكم على الصحف الافرنسية التي تصدر في بلادنا ايضاً .

كانت الجرائد العربية قبل الانقلاب الاخير عبارة عن الاعيب وروايات عن السياسيات الخارجية محرفة وكان يحظر عليها خصوصاً في العشر السنين الاخيرة ان تبحث في موضوع اجتماعي اداري او سياسي وطني فكانت موضوعاتها من ثم سخفاً او سخفاً من جرائد اوربا والاستانة في شؤون تافهة لا ترقي عقلاً ولا تلقن فضلاً .

ولما انقذ الله البلاد من ظلم الاستبداد كانت صحافتها اول ما تحرر من اوضاعها مع صحافة العناصر الاخرى فدافعتها الحرية على حين غرة واصبحت في حل من الخوض في كل موضوع وعندها ظهرت كفاءتها وصح لمن يريد التظاهر بينها وبين الصحافة التركية ان يصدر حكمه عليهما .

ليكن في سورية والعراق والجزيرة والحجاز واليمن وطرابلس الغرب غير بضع جرائد ومجلتين في مدينة بيروت ولبنان وواحدة في دمشق واخرى في طرابلس الشام اما حلب والبصرة وبغداد واليمن والحجاز فكان يصدر في كل واحدة منها جريدة رسمية باسم ولايتها نصفها بالتركية والنصف الآخر بالعربية السقيمة وسائر قواعد البلاد خالية من الجرائد الرسمية وغير الرسمية لان الجرائد كانت العدوة الكبرى للسلطان المخلوع فلم يكن يسمح باصدارها الا مضطراً او بالاحتيال العظيم والبذل الكثير .

ولم تمض مدة على نشر الدستور العثماني حتى ظهرت جميع جرائد يومية جديدة في بيروت ودمشق وحلب وصدرت في الموصل وبغداد والبصرة ومكة وجدة وطرابلس الشام وطرابلس الغرب والقدس وحيفا، وبالجملة وضع عيون واللاذقية جرائد اسبوعية متناسبة مع حال البلاد التي تصدر فيها وان كانت جرائد سورية من حيث التركيب اليماني والعربي اوفى من جرائد غيرها من الاقطار لان المكتبة العربية مشتركة من الطابعين بها في بلاد الشام اكثر من غيرها ولكن تلك الجرائد الصادرة في الاقطار الاخرى عامة في كل حال لما تأتي به من الافكار والاخبار ويكون منها حصول الفائدة العام لمن تشرين المطبوع .

اما الجرائد التركية قبل الدستور فكانت عبارة عن ملتقطات من الصحف الاوربية في السياسة الخارجية وتبليغات اوامر الحكومة الاستبدادية واوفى خصمت لما أليه عبد الحميد الثاني والطرائف الحمراء ثم يعهد في لغة من اللغات ولا في امة من الامم وكانت تلك الجرائد محمية بالعادات السلطان السابق ومدعى بعض الشركات المساهمة في ايرادات جهات السلطنة . ومع كل هذا فالسابق كان الارتقاء ماديا في الصحافة التركية اكثر من غيرها لان التركية لغة الحكومة وجرائدها مقروءة في بلاد الترك من آسيا واوربا كما تطالع في غيرها من البلاد لكثرة الموظفين وغيرهم ممن يعرفون التركية ويهمهم ان يطلعوا على قرارات حكومة العاصمة ومنشوراتها وابلاغاتها .

ثم ان الاتراك يحبون ابراق نشريا تهم وجميع ما يقع العرب ونظام الأسرة عندهم اسهل منه عند اكثر العرب والمرأة التركية واحق بمثال اكثر تعليماً وتهذيباً من المرأة العربية . فقد تطوف البلد الكبير سبع مرات النهار ولا تجد الا بضع بنات متعلمات ولو استقرأت قواعد البلاد التي يغلب فيها العنصر التركي لرأيت التعليم من التركيات يفوق الثلثان والاثنين ولا سيما في العاصمة . وهذا هو احد اسرار انتشار الجرائد في الاتراك اكثر من انتشارها هنا لكثرة سواد القارئين والقارئات عندهم وقلته عندنا .

واذا اردنا المقارنة بين الصحف التركية وخصوصاً صحف العاصمة وبين الصحف العربية في الولايات تكون المعرفة الاخيرة بين الصحافة العثمانية فيما نحسب ولذلك وجب ان نقابل الصحافة العربية كلها بالصحافة التركية كلها اي الصحف التركية التي تصدر في الاستانة وازمير وسلانيك وادرنة وماستر وغيرها من البلاد العثمانية

والصحف التركية التي تصدر في القريم والقافقاس مع الصحف العربية التي تصدر في الولايات العثمانية ومصر وتونس والجزائر والمغرب الاقصى وجرائد المهاجرين من السوريين في اميركا الشمالية والجنوبية . وهذه الصحف على اختلاف مصادرها مستمدة مجريتها الفكرية ما خلا بعض صحف تونس والجزائر والقريم والقافقاس واذ كانت درجة ارتقاء الشعوب التي تملى عليها متفاوتة جاءت هي كذلك .

ولذا كان من اللائق اذاً ان نقيس صحف بلد معين بآخر معين لان قوة الجرائد بقوة من تصدر بينهم كما فتاواذ كان اهل الاستانة ارقى من حيث المجموع من اهل سائر الولايات ومدينتهم عاصمة سلطنة عظمى من اعمالها ثلاثون ولاية عدا الايالات المستقلة وهي مهوى افئدة الامم الاسلامية كافة كانت صحافة الاستانة ارقى من صحافة القاهرة وهي عاصمة مملكة فيها نحو ثلث سكان الولايات العثمانية ولها السبق علينا بالاستمتاع بنعمة الحرية . ومركز القاهرة السياسي مهم ايضاً واهلها عريقون في الحضارة منذ عشرات من السنين وهي في غناها الطبيعي اغنى من الاستانة في الحقيقة . فلا عجب اذا امتازت فروق من هذه الوجهة عن مصر .

وأمامنا كثيراً في صحافة مصر والاستانة في العهد الاخير فرأينا امهات الجرائد التركية ارقى من امهات الجرائد المصرية مادة واسلوباً وشكلاً ووضعاً وطبعاً . ولا أتمالى اذا قلت ان جريدة طنين وبكي تصوير افكار وبكي غرته وصباح وافدام لا تعوقها الطنن والدنيا والمينور والمايتن والجورنال الا بحوادثها الخارجية وما عدا ذلك من البحث في ادارة البلاد وسياستها الداخلية واخبارها وافكارها وآدابها واجتماعها فالجرائد التركية شقيقة الجرائد الفرنسوية بقيمتها الا قليلاً هذا مع بعد عهد الفرنسيس بالحضارة وقدم جرائدهم وقرب عهد الترك بها وحداثة جرائدهم . وتفوق جرائد القاهرة كالمؤيد والمؤيد والجريدة والاهرام والمقطم مثلاً بانها اجهر في الصرخ على اوتار الحماس في الامة اكثر من جرائد الاستانة .

اما المجلات الافرنسية فهي ارقى بلا جدال من المجلات التركية وتصدر تحت سماء الاستانة بضع مجلات مثل « علوم اقتصاديه واجتماعيه مجموعه سي » و « ملكيه » و « اشهبال » و « ثروت فنون » لا تقل في اتقانها وتدقيقها في موضوعاتها عن المجلات العربية الكبرى في مصر والشام وهي ارقى منها من حيث الوضع والطبع واشبهها المجلات الاوربية في ان اتقانها تكثيرها الابدي المتنوعة من اهل الاختصاص . ومن العجيب ان

مصر على كثرة علمائها الاخصائيين لم يصدر فيها حتى الآن مجلات يكتبها المصريون القديم ولولا « مجلة الجامعة المصرية » و « صحيفة ندوي دار العلوم » وهما انشاء هذه السنة لقلنا ان مصر لاتميل العلميات ميلها الى السياسيات واهل العلم والادب فيها لا صوت لهم في المشاريع العلمية حتى ان جميع كاتبي جرائد « المشرق » و « المقتطف » و « المنار » و « الهلال » و « المقتبس » و « الجامعة » وغيرهم من ارباب المجلات السورية الحديثة « كالمباحث » و « النواس » و « المقتطف » و « الحسناء » و « الكوثر » و « الامة » و « العرفان » وغيرهم من لا تحصر اسماؤهم في مصر والشام .

اما جرائد سورية اليومية فهي اقنه من كثير من الوجوه بالصحافة التونسية من حيث المواد وقلة البحث في حالة البلاد وان كانت جرائد الشاميين اكثر عربية واسلوبا غيرة في الصحيح اسلوباً من جرائد التونسيين والفضل سبة ذلك للمدارس التي تعلم آداب العربية في الشام اكثر من تونس على ان المملكة التونسية وان كانت اصغر من الجزائر وهي مملكة مراكش فهي سبقت هذا العهد الوقتي طفرة وعربية منها بل في بالنسبة للجزائر كلها سويسرا الى ايطاليا او ايطاليا الى روسيا ولعل كثيراً من ابناء الجزائر يتذكرون حتى اليوم كبعض ابناء المراكشيين ما ينال له الجرائد والمجلات وكم للجامدين من جنايات جنوها على الدنيا والدين .

وقصارى القول ان الصحافة التركية ارقى بمجموعها من الصحافة العربية ولا سيما في السياسيات والاداريات والعسكريات . والقوم متدربون بمعاهل السياسة والادارة والجندية واديبهم ايضاً اقرب الى الاوربيات العربية من اديبات العرب . وعسى ان يكون الترقي الذي يتناول كل امة فيلياً حظها منه في ظل القانون الاساسي يجري التعادل بين البلاد فيوم الارتقاء لقاعدها كافة بعد جيل او جيلين من الناس ويجد رجال صحافتنا في الولايات العربية في ترقية جرائدهم ومجلاتهم ويسهرون على ايداعها كل مفيد من الابحاث السياسية والاجتماعية والاقتصادية والاخلاقية والادارية والعلمية والادبية بحيث يزال عن العقول صدأوها فتقبل من حلى الادبية الحقيقية ما يليها السعادتين ويسمو بها اليه اهل الخافقين .